إشكاليَة العلاقة بين الشِّعْر والأخْلاق في النقد العربي القديم

د.طارق زيناي
جامعة العربي بن مهيدي / أم البواقي

تاريخ الإرسال: 2020-04-22	تاريخ القبول: 2020-05-12

مُلخَّص:

إنَّ البدايات الأولى لظهور قضية العلاقة بين الشعر والأخلاق – بوصفها وعيا ومعيارا نقديا– يمكن إرجاعها لعصر صدر الإسلام وبالتحديد عصر النبوة وعصر الخلفاء الرَّاشدين، حيث جاءت الشواهد متكاثرة عن هذه الفترة تجسِّد العلاقة التلازمية بين الشعر من جهة والدين والأخلاق من جهة ثانية، بحيث أضحت المقاييس النقدية في هذه الفترة مقترنة بالأحكام والتعاليم الإسلامية، التي جاء بها القرآن، والأخلاق والعادات العربية التي أقرَّها وثمَّنها الرسول صلى الله عليه وسلم؛ الذي بعث ليتمِّم مكارم الأخلاق.

الكلمات المفتاحيَّة : الشِّعْرُ؛ الأخْلَاق؛ القُرْآن؛ النَّقْد العَرَبِي القَدِيم .

Abstract:

The early beginnings of the issue of the relationship between poetry and morality, as an awareness and a monetary standard, can be traced back to the era of islam, specifically the age of prophecy and the age of the Rishadcaliphs, where the evidence of this period is a multiplicity of the tying relationship. Between poetry on the one hand and religion and morality on the other, the monetary standards of this period became associated with the Islamic rulings and teachings, which were mentioned in the Qur'an, and the Arab morals and customs that the Prophet (PBUH) adopted and valued, who was sent to complement the morals.

Keywords: Poetry; Morality; Qur'an; Arabic Criticism; The Old.

البحث:

معلوم أنَّ الأسس والمقاييس النقدية الإسلامية في العموم لها ارتباط بالمعنى بالدرجة الأولى، ولهذا كان تصوُّر النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وصحابته من بعده للشعر يقوم على توجيه المعنى توجيها أخلاقيا وإسلاميا، لا يتعارض مع روح هذا الدين وتعاليمه وقواعده، ولهذا قبل التطرق لطرفي معادلة الشعر والأخلاق في النقد العربي القديم، لابد من الإشارة إلى بعض الشواهد في عصر صدر الإسلام، التي ربطت بين الدين والأخلاق وبين الشعر؛ والتي كانت مرتكزا – بعد ذلك – لأنصار حتمية ربط الشعر بالإخلاق :

مِن شَوَاهِد عَصْر صَدْر الإسْلَام الدَّالَة عَلى الاتِّصَال بَيْن الشِّعْر وَالأخْلَاق:

إذا تأملنا موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من الشعر والشعراء، فإننا لاشك سنلمح أنَّ الجوانب الدينية والأخلاقية كانت هي العدسة التي يُنظر من خلالها إلى الشعر، والشواهد الآتية خير دليل على ذلك :

ـ من ذلك ما رُوي عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « إنما الشعر كلام مؤلف،فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق فلا خير فيه »[1].

فالشعر لا يخرج عن كونه كلاما، والكلام منه حسن وقبيح، إذن فمدار الاعتبار في التصور النبوي للشعر يرجع إلى ما دلَّ وأفصح عنه، فإذا كان يدعو إلى الخير

[1] – ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط05، 1981، ص 27.

والحق ومكارم الأخلاق فمحمودٌ، وإذا كان غير ذلك من الدعوة إلى الشر والباطل ورذائل الأخلاق وسفاسف الأمور، فمذمومٌ، وقد جاء عن ابن سيرين في هذا المنحى قوله: « الشعر كلام عقد بالقوافي، فما حسن في الكلام حسن في الشعر، وكذلك ما قبح منه »[1]

ـ ومن ذلك كذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلٌ »[2].

فهذا القول من الرسول صلى الله عليه وسلم يتساوق مع روح الإسلام وقواعده العقدية المعروفة في الدين ولهذا كانت أصدق كلمة وأقربها للحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ـ وحين أنشده النابغة الجعدي قصيدته التي منها:

« وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نُعَوِّدُ خَيْلَنَا	إِذَا مَا الْتَقَيْنَا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا
وَنُنْكِرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا	مِنَ الطَّعْنِ حَتَّى نَحْسَبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا
وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا	صِحَاحًا وَلَا مُسْتَنْكَرًا أَنْ تَعَقَّرَا

حتى وصل إلى قوله :

[1]– أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج01، تح : محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة الجديدة / دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1981، ص 48.

[2]– محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، ج05، تح : محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط01، 1422هـ، ص 42، الحديث رقم [3841]، رواه كذلك مسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم...

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ	بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ	أَرِيبٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لَا يَفْضُضِ اللَّهُ فَاكَ », قَالَ: وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا, وَكَانَ إِذَا سَقَطَتْ لَهُ سِنٌّ نَبَتَتْ »[1].

فهذا الشاهد يبين لنا إعجاب الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر الدَّاعي للخير والفضائل ومكارم الأخلاق، ولهذا ينقل ابن رشيق عن عمر رضي الله عنه قوله لأبي موسى الأشعري:« مر من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب » [2]، والأمر نفسه روي عن معاوية بن أبي سفيان قوله: « يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب وقال: اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلَائِي	وَأَخْذِي الحَمْدَ بالثَمَنِ الرَّبِيحِ

[1]- بحثت في صحة هذا الحديث في كتب السنة فلم أجده إلا في مسند الحارث وكتب الأدب المعروفة، رواه أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب المعروف بابن أبي أسامة، بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ج02، تح: حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ط01، 1992، ص 844.

[2]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 28.

وَإِقدَامِي عَلَى المكْرُوهِ نَفْسي	وَضَرْبِي هَامَةَ البَطَلِ المشِيحِ
وَقَولِي كُلَّما جَشَأَتْ وجَاشَتْ	مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحي
وأَدْفَعُ عَنْ مَكارِمَ صَالحَاتٍ	وَأَحْمِي بَعْدُ عَنْ عِرْضٍ صَحِيحِ »[1]

والشواهد في هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أكثر من أن تحصر.

مَدَارَاتُ الخِلَافِ بَيْنَ النُّقَادِ القُدَامَى حَوْلَ العَلَاقَةِ بِيْنَ الشِّعْرِ وَالأَخْلَاقِ :

إنَّ المتتبع للتاريخ الأدبي والنقدي عند العرب يلمح أنَّهم قد أولوا اهتماما لضرورة تعلق الشعر بالقيم الأخلاقية المختلفة، وذلك منذ العصر الجاهلي؛ لأن حضور الأخلاق في الواقع اليومي للإنسان العربي هو أمر موافق للطبيعة والفطرة الإنسانية، بحيث لا مجال لتجاهلها، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أنَّ هذا العصر مع ما فيه من نزق وجهل ومجون وسفاهة إلا أن صوت العقل والاستقامة لا يلبث أن يظهر عندهم حضورا واضحا، ويتجلى ذلك في التغني بالفضائل والمكارم من شجاعة وكرم ونجدة وفروسية وحفظ للجوار ونصرة للمظلوم، وإلى هذا المعنى أشار أبو تمام [2] :

وَلَوْلَا خِلَالٌ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَا دَرَى	بُغَاةُ النَّدَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى المَكَارِمُ

ولكنها في العصر الإسلامي أخذت منحى آخر يقوم على تعاليم هذا الدين الجديد الداعية إلى التمسك بالأخلاق والتحلي بالفضائل، حيث إن نصوص القرآن والسنة جاءت متضافرة في هذا، وبقي الأمر على حاله – تقريبا – في العصر الأموي

[1] – المصدر نفسه، ج01، ص29.

[2] – الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ج02، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط02، 1994، ص89.

مع وجود شطحات هنا وهناك فيها بعض الخروج عن جادة الفضائل، كما نلحظه في الغزل الماجن والهجاء المقذع والمدح الكاذب، ولكن مع العصر العباسي تظهر مشكلة علاقة الشعر بالأخلاق، عند النقاد الذين تناولوا شعر فحول الشعراء، فاختلفوا لأجل ذلك إلى مذاهب؛ كلٌّ ينتصر لما يراه صوابا، وفيما يأتي نتناول- باختصار- ما قيل في هذه القضية :

أَنصَار حَتميَّة العلَاقة بين الشِّعر والأخلَاق:

لعلَّ من أوائل من تنبَّه إلى أن الشعر يضعف ويلين في باب الخير، ويشتدُّ ويقوى في باب الشرِّ هو الأصمعي، وإن كان هو من خلال الشواهد التي رويت عنه يرى ضرورة الاتصال بين الشعر والدين والأخلاق، يقول عنه المبرِّد : « كان الأصمعي لا يفسِّر من الشعر ما فيه ذكر الأنواء، بل كان لا يسمع ما كان فيه هجاء أو كان فيه ذكر النجوم [1]، ولا يفسر ما وافق تفسيره بعض ما في القرآن إلا ساهياً » [2]، ونجده يروي خبرا عن شيخه أبي عمرو بن العلاء يقول فيه عن لبيد بن ربيعة : « ما أحد أحبُّ إليَّ شعرا من لبيد بن ربيعة، لذكره الله عزَّ وجل، ولإسلامه، ولذكره الدين

[1]- ومبعث ذلك عنده يرجع للتحرُّج الديني، خاصة وأنَّه يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله :« إِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا» أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ج02، تح : أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط01، 1994، ص794. رواه كذلك الطبراني في معجمه الكبير وابن بطة في الإبانة الكبرى وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء وغيرهم، والحديث صححه محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج01، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط01، 1995، ص 75.

[2]- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج04، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط03، 1997، ص58.

والخير »[1] ولكنه مع ذلك يرى أنَّ شعره لا يؤهله لكي يكون من الفحول، وإن كان جيَّد الصنعة، مما يُفهم عنه أنه يفصل بين القيمة الفنية والقيمة الأخلاقية في الشعر، وخير دليل على ذلك مقولته الشهيرة عن شعر حسان : « طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أنَّ حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره في باب الخير – من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم – لان شعره، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحمر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لان »[2].

ولكن هناك من النُّقاد من يرى أنَّ الأصمعي لم يربط ضعف شعر حسان بن ثابت بنظمه الشعر في أبواب الخير، وإنما لسبب آخر وهو ما دُسَّ وَنُحِلَ عليه من شعرٍ، ويستدلُّ بما قاله ابن سلام الجمحي عنه : « أشعرهم حسان بن ثَابت وَهُوَ كثير الشّعْر جَيِّدَة وَقد حمل عَلَيْهِ مَا لم يحمل على أحد، لما تعاضهت قُرَيْش واستبت وضعُوا عَلَيْهِ أشعارا كَثِيرَة لَا تنقى »[3].

ويعدُّ أبو بكر الباقلاني من المتشددين في قبول الشعر البعيد عن الأخلاق، والموغل في الفحش والاستهتار والمجون، ولهذا نجده يقود حملة شعواء ضد معلقة امرئ القيس، فيذكر ما فيها من ابتذال وتهتك، من ذلك قوله : « وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله، ويأنف من ذكره!! وقوله:

[1]– أبو عبد الله محمد المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1995، ص89.

[2]– المصدر نفسه، ص 78.

[3]– محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج01، شرحه : محمود محمد شاكر، دار المدني، السعودية، دط، ص 215.

إذا ما بكَى من خَلفِها انصَرَفَتْ لَهُ	بِشِقٍّ وَتَحتي شِقُّها لم يُحَوَّلِ
ويَوْماً على ظَهْرِ الكَثيبِ تَعَذَّرَتْ	عَليَّ، وآلَتْ حَلْفَةً لم تُحَلَّلِ

فالبيت الأول غاية في الفحش، ونهاية في السخف، وأي فائدة لذكره لعشيقته، كيف كان يركب هذه القبائح، ويذهب هذه المذاهب، ويرد هذه الموارد ؟! إن هذا ليبغضه كل من سمع كلامه، ويوجب له المقت! »[1].

وموقف الباقلاني لعله يرجع لخلفيته الدينية الملتزمة، كيف لا؟ وهو من بين أهم منظري الدراسات الإعجازية للقرآن الكريم، والقرآن الكريم نفسه أزرى بالشعراء المارقين عن سبيل الحق والهدى إلى طرق الغي والضلال، والخروج عن مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال إلى سيئها، يقول تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) ﴾[الشعراء: 224- 226]، بل إن المؤسسات الدينية في ذلك الزمن قد شاركت هي أيضا في هذه القضية مؤكِّدة على حتمية تطابق المحتوى الفني مع الالتزام الديني، ولهذا نجد فتاوى في هذا الصدد تحرِّم الشعر المفرغ من محتواه الأخلاقي، حيث نجد بعض الآراء الفقهية تردُّ شهادة الشاعر، وحرمان ناسخ الأشعار، ومعلم الأولاد الشعر من الأجرة، فمثلا جاء في كتاب الأم للشافعي قوله : « فَمَنْ كَانَ مِنْ الشُّعَرَاءِ لَا يُعْرَفُ بِنَقْصِ الْمُسْلِمِينَ وَأَذَاهُمْ وَالْإِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا بِأَنْ يَمْدَحَ فَيُكْثِرَ الْكَذِبَ لَمْ تُرَدَّ شَهَادَتُهُ، وَمَنْ أَكْثَرَ الْوَقِيعَةَ فِي النَّاسِ عَلَى الْغَضَبِ أَوْ الْحِرْمَانِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ ظَاهِرًا كَثِيرًا مُسْتَعْلِنًا، وَإِذَا رَضِيَ مَدَحَ النَّاسَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ كَثِيرًا ظَاهِرًا مُسْتَعْلِنًا

[1]- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 05، 1997،ص167.

كَذِبًا مَحْضًا رُدَّتْ شَهَادَتُهُ »[1]، وكذا ورد عن الإمام مالك وقد سئل عن الشاعر هل تقبل شهادته ؟ قوله : « إنْ كَانَ مِمَّنْ يُؤْذِي النَّاسَ بِلِسَانِهِ، وَهُوَ يَهْجُوهُمْ إذَا لَمْ يُعْطُوهُ، وَيَمْدَحُهُمْ إذَا أَعْطَوْهُ، فَلَا أَرَى أَنْ تُقْبَلَ شَهَادَتُه »[2]. هذا في المدح الكاذب والهجاء المقذع، فما بالك في الفخر الغالي والغزل الفاحش، فحينذاك يكون الأمر أشد والنهي أوكد.

أما إذا انتقلنا إلى حازم القرطاجني (ت 684هـ) فنجده قد ربط بين الأساس الأخلاقي بوظيفة الشعر المتمثلة في الرغبة في الشيء وطلبه أو الرهبة منه وتركه، وذلك من خلال ربط هذه الوظيفة بفعل التخيل؛ الذي هو الأداة والوسيلة التي توجه إرادة وسلوك المشتغل بالشعر، ويظهر هذا المعنى في قوله: « لما كان المقصود بالشعر إنهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده بما يخيل لها فيه من حسن أو قبح وجلالة أو خسة وجب أن تكون موضوعات صناعة الشعر الأشياء التي لها انتساب إلى ما يفعله الإنسان ويطلبه ويعتقده »[3]، فالشعر – في نظر حازم – يقوم بوظيفة دفع النفس الإنسانية إلى ما فيه صلاحها بفعل أو بترك، وهذا الفعل والترك يرجع عنده إلى مقولة التحسين والتقبيح التي تتحقق عنده في أربع زوايا[4] :

1-إما أن يحسن الشيء من جهة الدين وما توثره النفس من الثواب على فعل شيء أو اعتقاده وتخاف من العقوبة على تركه وإهماله وإما أن يقبح من ضد ذلك.

[1]- أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الأم، ج06، دار المعرفة، بيروت، دط، 1990، ص 224.

[2]- مالك بن أنس، المدونة، ج04، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 19994، ص 19.

[3]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص 106.

[4]- يُنظر: الصفحة نفسها.

2- وإما أن يحسن من جهة العقل وما يجب أن يوثره الإنسان من جهة ما هو عاقل ذو أنفة من الجهل والسفاهة وإما أن يقبح من ضد ذلك.

3- وإما أن يحسن من جهة المروءات والكرم وما توثره النفس من الذكر الجميل والثناء عليه أو يقبح من ضد ذلك.

4- وإما أن يحسن من جهة الحظ العاجل وما تحرص عليه النفس وتشتهيه مما ينفعها من جهة ما توثر من النعمة وصلاح الحال أو يقبح من ضد ذلك.

يعلق جابر عصفور بعد إيراده لهذه الزوايا الأربع المتعلقة بالتحسين والتقبيح:« من المؤكد أن هذه الزوايا الأربع تمثل معيارا أخلاقيا له ثباته في تحديد البعد الأخلاقي للشعر »[1].

أنصار القطيعة بَين الشِّعر وَالأخْلَاق:

إنَّ من أول ما وصلنا عن النقاد في الفصل بين القيمة الفنية والقيمة الأخلاقية ما يرجع لأبي بكر الصولي (ت335هـ) ولقدامة بن جعفر (ت 337هـ)، حيث لمَّا لم يستطيعا إسقاط القيمة الأخلاقية من الشعر بسبب تجذره في البنية الفكرية والدينية للإنسان العربي، راحا يدافعان عن هذه العلمانية الأدبية من خلال دفاعهما عن الشعراء، وأنه لا علاقة بين تدينهم وأخلاقهم وبين شعرهم، ولعلَّ أبا بكر الصولي يعدُّ دفاعه عن أبي تمام المرجع الأول في هذا، حيث إنه ردَّ على الذين ينتقدون شعره من خلال سيرته التي تُروى عنه من قلة الدين وتضييع الفرائض والتهاون في الصلوات، فقال قولته الشهيرة: « وقد ادَّعى قوم عليه الكفر بل حقَّقُوه، وجعلوا ذلك سبباً

[1]- جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط05، 1995، ص 207.

للطعن على شعره، وتقبيح حسنه، وما ظننت أنَّ كفراً ينقص من شعرٍ، ولا أنَّ إيماناً يزيد فيه »[1].

وفي المسار نفسه جاء رأي قدامة بن جعفر، حيث جعل المعيار للشعر، ليس هو قربه من الأخلاق من عدمه، إنما هو الإجادة وحسن الصياغة، فيقول في ذلك:«وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان، من الرفعة والضعة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة: أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة »[2]، ثم يقول بعد ذلك مفصلا ومستشهدا لرأيه هذا بقوله : « رأيت من يعيب امرأ القيس في قوله:

فمِثْلُكِ حُبْلى قد طرَقْتُ ومُرْضِعٍ	فَأَلْهَيْتُها عنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ
إذا ما بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ	بِشِقٍّ وتَحْتِي شِقُّهَا لَمْ يُحَوَّلِ

ويذكر أن هذا معنى فاحش، وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداءته في ذاته »[3].

فقدامة هنا فرق بين الحكم الأخلاقي وبين نقد الشعر من الناحية الفنية في تعلقهما بالمعنى، حيث جعل معيار الشعرية الحقة يتجاوز كل معطى أو معيار خارجي، سواء أكان أخلاقيا أم غيره، « معنى ذلك أنه علينا أن نحكم على المعنى،

[1]- أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أخبار أبي تمام، تح : خليل محمود عساكر وآخرون، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط03، 1980، ص172.

[2]- أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط01، 1302هـ ، ص 04.

[3]- المصدر نفسه، ص05.

أو نميز جيده من رديئه، لا باعتباره معنى أخلاقيا، وإنما باعتباره معنى شعريا في المحل الأول »[1].

فهو بهذا قد جعل مناط الإجادة والرداءة لا ترجع للمعنى أو المضمون المستبطن فيه، وإنما ترجع بالصياغة أو صورة العمل الإبداعي، والعناصر المشكلة له، ومدى تناسب وتجانس بعضها مع بعض، أو ما يطلق عليه قدامة اسم التقابل والتفصيل والتكافؤ والمساواة وغيرها من صفات شكل العمل الإبداعي.

والأمر نفسه نجده عند القاضي الجرجاني مع المتنبي، حيث ردَّ على اتهام البعض له بالاستهتار بالدين، وببعض شرائع الإسلام، بأن الشاعر لا يُنظر لشعره من خلاله دينه الذي يعتنقه، وإلا كان لزاما علينا طرح أكثر شعر الجاهليين؛ لأنهم كانوا أهل كفر ووثنية ومجون وتهتك، ويلحق بهم الشعراء الماجنون في عصور لاحقة وعلى رأس أولئك الشاعر أبو نواس، يقول في هذا: « والعَجَب ممَّن ينقص أبا الطيب، ويغضُّ من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة (...) فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، لوجب أن يُمحى اسمُ أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عُدّت الطبقات، ولَكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبَعرى وأضرابُهما من تناول رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بُكْماً خرساً، وبِكاء مفحمين؛ ولكنّ الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر »[2].

[1]- جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، مرجع سبق ذكره، ص 97.

[2]- علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 2006، ص62 – 63.

وهنا نقطة لابد التنبيه لها، وهي أن بعض الدارسين العرب القدامى المتأثرون بالثقافة اليونانية، وعلى رأسهم ابن رشد وسكويه، قد نفَّروا من الشعر وسماعه جريا على مذهب أفلاطون، الذي يرى في الشعر داعية للشرِّ والمجون ومبعثا للضعف واللين، حتى أنه أخرجهم من جمهوريته الفاضلة، فراحوا لأجل ذلك يكيلون التهم للشعر العربي بوصفه يبعث على الظلم والتهتك والمجون ومدح الطغاة، وأنه لا يصلح سبيلا للتربية والتطهير.

وفي مقابل من اعتمد الخلفية الفلسفية هناك من اعتمد الخلفية الدينية، وعلى رأس أولئك ابن حزم الأندلسي (صاحب مذهب الظاهرية في الفقه)، الذي حذَّر من الشعر على الناشئة، وقال : إنه من العوامل الهدَّامة لأخلاقهم وتربيتهم.

وأما من وقف من النقاد موقفا محايدا دون إطلاق حكم، فنجد منهم ابن رشيق الذي ينقل عن عبد الكريم تقسيمه الشعر إلى أربعة أصناف، والذي يهمُّنا منه صنفان يدخلان في باب الأخلاق؛ حسنها وسيئها، وذلك في قوله: « قال عبد الكريم: الشعر أربعة أصناف: فشعر هو خير كله، وذلك ما كان في باب الزهد، والمواعظ الحسنة، والمثل العائد على من تمثل به بالخير، وما أشبه ذلك؛ وشعر هو ظرف كله، وذلك القول في الأوصاف، والنعوت والتشبيه، وما يفتن به من المعاني والآداب؛ وشعر هو شر كله، وذلك الهجاء، وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس؛ وشعر يتكسب به، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها، ويخاطب كل إنسان من حيث هو، ويأتي إليه من جهة فهمه » [1]

ولعلَّنا من خلاف التطواف المقتضب الذي تناولنا فيه موقفين بارزين في الدرس النقدي القديم يتبين لنا أن الخلاف في إشكالية العلاقة بين الشعر والأخلاق خلاف

[1]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 118.

معتبرٌ، كل موقفين له وجاهته وأدلته، ويبقى الفصل صعبٌ، وهو يرجع – أساسا– للمرتكزات الفكرية والثقافية وموقفهم من قضايا الشعر من جهة، والأخلاق من جهة ثانية.

خاتمة:

مما سبق يمكن إجمال النتائج المتوصل إليها باعتبار طرفيْ قضية العلاقة بين الشعر والأخلاق في النقاط التالية:

ـ أنه لو كان في الشعر الساقط البعيد عن الأخلاق خيرٌ لتلقاه الصفوة من الأمة بالقبول، وهم أبعد الناس عن روايته وتناقله.

ـ أن مثل هذا الشعر هو معول هدمٍ فتاك لأخلاق النشء وإفساد ممنهج لسلوكاتهم.

ـ أن أصحاب هذا الشعر – في الغالب – هم من الموالي المارقين عن الأخلاق الإسلامية التي تدعو إلى الالتزام بالسلوكات الفاضلة والمحمودة.

ـ أن هؤلاء الشعراء قد فضحوا الناس وكشفوا أسرارهم، وهتكوا أستارهم، بل وحسنوا الباطل وجمَّلوا القبائح.

ـ أن الشعراء الذين يأتون بهذه الأشعار التي يرى خصومهم أنها تدعو على فساد الأخلاق والارتماء في الشهوات، هم يعبرِّون عن النفس الإنسانية في تحررها ورغبتها في التعبير عن أهوائها، وليس كل الناس مطلوبٌ منه أن يكون زاهدا ملتزما، فالله خلق الناس مراتب ودرجات.

ـ أن الشعر لو كان مرتبطا بالأخلاق لكان أشعر الناس في الجاهلية أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد لا غيرهم من أشهر الشعراء، المتفق عليهم كامرئ القيس والأعشى وزهير والنابغة...

أن الناس منذ صدر الأمة الأول يتداولون أشعار من عرفوا من الجاهليين بالبعد عن الأخلاق كامرئ القيس والنابغة، ومن جاء بعدهم من الإسلاميين كالفرزدق وعمر بن أبي ربيعة، بل نجدهم يتناشدون الشعر الساقط بين ثالوث النقائض الأموي جرير والفرزدق والأخطل.